مجلة كلية الآداب. جامعة الإسكندرية . المجلد ٧٣ . العدد ١٠٨ .

التراكيب القرآنية بين البلاغة والمبالغة

أ.د. مجدي محمد حسين

٢٠٢١م

مـلـخص الـبـحث

طرحنا في هذا البحث سؤالًا مؤداه: هل في التراكيب القرآنية مبالغة؟ وكان الجواب بالإيجاب، فصفات الله مثل: **(غفور، رحيم، علام)** جاءت على صيغ المبالغة القياسية، ولكننا أردنا بالمبالغة هنا ما يخص التراكيب كما يقال: إن فلانًا يبالغ في كلامه وأثبتنا مثل هذا النوع في القرآن، ويتجلى في جانبين: ما يخص الأحياء والآدميين، وما يخص المعاني والجمادات.

Quranic structures between rhetoric and exaggeration

In this research, we raised the question as to whether or not there is exaggeration in the quranic structures. And the response to this question was an affirmative one as the attributes of Allah –The Almighty- like: Ghafour, The exceedingly forgiving", Raheem "The bestower of mercy", Allam "The knower" were formed according to the standard patterns of intensity. However that we meant by intensity here is the exaggeration with regards to the structures as when it is said the somebody is exaggerating in what they are saying. We proved that this kind of exaggeration is in the Quran and it is manifested in two aspects: What is concerned with the living and the human beings, and what is concerned with significances and inanimate objects.

Prof. Dr. Magdy Mohamed Hussein

Language Professor

Faculty of Arts, Alexandria University

التراكيب القرآنية بين البلاغة والمبالغة

قد يطرح السؤال نفسه: وهل في التراكيب القرآنية مبالغة؟ الجواب: نعم، فصفات الله في جملتها جاءت على صيغ المبالغة، فعندما نقول **(إن الله غفور)** فهذه مبالغة أي: كثير المغفرة وواسعها، وكذا **(شكور)** وبالمثل عندما نقول **(إن الله فعال لما يريد)** أو **(علام الغيوب)** فهو كذلك لكثرة هذا الفعل وكثرة علمه، وقد ينسحب الأمر على عباده كذلك: فيوسف نُعت بالصديق (**يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ**) (يوسف: ٤٦)، وكذا عيسى كانت أمه صديقة **(المائدة: ٧٥)** ... إلخ.

بل قد تكون المبالغة في الذم والهجاء، فقد نهى القرآن عن طاعة كل آثم كفور ونهى كذلك عن طاعة كل حلاف مهين هماز مشاء بنميم مناع للخير معتد أثيم عتل بعد ذلك زنيم **(القلم: ١٠ – ١٣)** ولا ننسى أن امرأة أبي لهب موصوفة في القرآن بحمالة الحطب.

ومع ذلك لا نريد بالمبالغة تلك الصيغ التي جاءت على أوزان صرفية قياسية، ولكن نريد بها المبالغة في الكلام بعيدًا عن الأوزان، كما يقال إن فلانًا يبالغ في كلامه إذا زاد على المطلوب في الوصف والتصوير، وأحسب أن هذا النوع من المبالغة يوجد مثله في القرآن.

والمبالغة درس من دروس البلاغة وهو أن يصرف المتكلم كلامه عما يطابق المألوف ويوجهه إلى ما لا يطابقه، شرط أن يكون وقوع ما يقوله ممكنًا عقلًا وعادة، وتعد المبالغة من الأساليب العربية التي يقصد

بها تفخيم المعنى وتهويله لتمكينه وتوكيده في نفس المتلقي، وهي أحد فنون علم البديع.

عرف ابن المعتز (ت: ٢٩٦هـ) المبالغة بأنها الإفراط في الصفة، وهي عند الرماني (ت: ٣٨٤هـ) الدلالة على كبر المعنى على وجه التغيير عن أصل اللغة لتلك الإبانة، أما أبو هلال العسكري (ت:٣٩٥هـ): فيرى أن المبالغة هي أن تبلغ بالمعنى أقصى غاياته وأبعد نهاياته ولا تقتصر في العبارة عنه على أدنى منازله وأقرب مراتبه.

ويمكن أن نقسم هذا الدرس إلى نوعين: نوع يخص الكائنات الحية، ونوع يخص المعاني والجمادات:

أولًا: ما يخص الكائنات الحية:

(خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا) (النساء: ٧٩)

تشير كثير من الآيات إلى خلود أهل الجنة فلا موت ولا نهاية فهي حياة ممتدة، وكذا الحال لأهل النار فهم خالدون فيها أبدا وليس لعذابهم آخر ولا حد، وهذا قد يكون مفهومًا لأهل الجنة أن يبقوا ويخلدوا في هذا النعيم لأنها مسكنهم وقد أخرج إبليس أباهم آدم منها فهي المسكن الذي عده الله للخلق، وهو ما يتفق مع كرم الله وفضله ومنِّه، أما أن يخلد الكافر والمشرك والفاسق والعاصي والمجرم وكل من على هذه الشاكلة في النار فلا يموت فيها ولا يحيا ولا يقضى عليهم فيموتوا ولا تفنى هذه النار ولا تطفأ ولا يكون لهذا العذاب نهاية، هذا كله ما لا يمكن استيعابه ولا فهمه ولا يتفق مع عدالة الله؛ إذ كيف لمن عصى ربه ثمانين سنة مثلًا على أقصى تقدير يبقى في عذاب لا نهاية له ولا فكاك منه؟ كما لا يتفق مع رحمته فهو الرحمن الرحيم وغفور بل واسع الرحمة والمغفرة، خصوصًا أن بعضهم سوف يدخل النار على نصف درجة لو رجح ميزان سيئاته وثقل على ميزان الحسنات.

لذا قال بعضهم بفناء النار وأنها سوف تذهب لأن كل شيء له آخر ونهاية، ومن القائلين بذلك من الصحابة عمر وابن مسعود وأبو هريرة، ومن العلماء ابن تيمية وابن القيم من أهل السنة وبعض المتكلمين، ومن المحدثين رشيد رضا، أما شيوخ المنابر في هذه الأيام والدعاة الجدد فيرفضون هذا الرأي وهذا القول لأنه يتنافى مع طبيعة

عملهم القائم على تخويف الناس ورعبهم فالمطلوب أن يبقى الناس في فزع، وعليه فالقول بخلود أهل النار في النار وأن عذابهم لا نهاية له كما أشارت بعض الآيات **(البقرة: ٣٩)** و**(النساء: ٦٨ – ٦٩)** يكون كناية عن طول المكث وهو ما يتفق مع صريح القرآن وقوله (**لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا**) (النبأ: ٢٣)، فهي مدة محددة مهما طالت وامتدت وهذا ما يتسق كذلك مع رحمة الله وعدله، فيكون في التعبير بالخلود والمكث المؤبد هو على سبيل المبالغة لهذا العذاب والمكث.

* * *

(حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ) (الأعراف: ٤٠)

تقضي قواعد التشبيه بضرورة وجود مناسبة بين المشبه والمشبه به وأن يكون بينهما وجه شبه، وهذه الشروط مفقودة هنا، فليس هناك علاقة بين الجمل في ضخامته وثقب الإبرة في ضآلتها، فالمعنى الظاهر للآية أن هؤلاء الكفار لن يدخلوا الجنة إلّا إذا دخل الجمل في ثقب الإبرة، فلنستحضر هذه الصورة: "جملًا يحاول الدخول من ثقب إبرة"؛ لذا قال ابن عباس: "إن الله أحسن تشبيهًا من أن يشبِّه بالجمَل"، من هنا وبسبب غرابة هذا التشبيه وبُعده كانوا يسألون متعجبين ما المقصود بالجمل مع علمهم به تمام العلم إذ كان يمثل ركنًا أصيلًا في حياتهم، فهذا أحدهم يسأل الضحاك فيجيب إنه ذات القوائم الأربع، وسُئل ابن مسعود من قبله فقال: ابن الناقة، وسُئل الحسن فقال: ابن الناقة.

فحاول ابن عباس التماس المخرج من خلال تغيير بنية الكلمة فقرأها تارة بضم الجيم والميم، وتارة بضم الجيم وتشديد الميم المفتوحة على أن يكون المعنى للجمل بعد تغيير البنية (القلس) وهو الحبل الغليظ الخاص بالمراكب ليوجد علاقة منطقية بين الحبل وثقب الإبرة وإلا صار التركيب متجاوزًا للبلاغة والذي دعا ابن عباس إلى مقولته الخطيرة سالفة الذكر.

وعليه فهي استعارة ومبالغة وتمثيل بالمحال وشبيه بتعليق العرب المستحيل على الشيء الذي لا يمكن حدوثه، كقولهم:

إذا شاب الغراب أتيت أهلي وصار القار كاللبن الحليب

والغراب لا يشيب أبدًا، والقار لا يصير لبنًا أبدًا.

* * *

(**وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ**) (يوسف: ٣١)

وما من مرة أقرأ فيها هذه الآية إلا وشعرت بالمبالغة الزائدة؛ إذ كيف يؤدي رؤية هؤلاء النسوة ليوسف إلى أن يقمن بتقطيع أيديهن وليس فقط خدشها وجرحها؟ بل إن في خدشها وجرحها مبالغة فما بالك بتقطيعها، مهما قيل في شأن جمال يوسف وحسنه، ولو كان يوسف على هذا القدر من الجمال –الذي لا يخلو هو كذلك من المبالغة– لانتشر أمره بين الناس ولكانت رؤيته مطلبًا ومسعىً من الجميع، ولم يكن يوسف مثلًا ابن الملك فحُجب عن الناس حفاظًا عليه بل كان أقرب إلى العبد

في بيت سيده العزيز، وهو القائل: (**إِنَّـهُ رَبِّـي أَحْسَنَ مَثْوَايَ**) (يوسف: ٢٣)، ووصفه القرآن كذلك بأنه فتاها (**وَقَـالَ نِسْوَةٌ فِـي الْمَدِينَـةِ امْـرَأَةُ الْعَزِيـزِ تُـرَاوِدُ فَتَاهَـا عَـنْ نَفْسِـهِ**) (يوسف: ٣٠). كما أن النسوة اللاتي حكى القرآن أنهن قطعن أيديهن كن قريبات من صاحبة البيت يعمل بعضهن عندها ومن الضروري أنهن رأين يوسف من قبل، خصوصًا ما قيل عن فتنته وجماله.

الفعل نفسه جاء على صيغة المبالغة من البداية **(قطعن)** على وزن (فعَّل) بل هو مبالغة لو كان قطعًا فما بالك وهو تقطيع، بل إن القصة إجمالًا لا تخلو من المبالغة، فامرأة العزيز تصورها الآيات امرأة شهوانية مغتلمة لا تستحي لكلام النسوة بل تتحدى وتعلن ارتكابها للمعصية على الملأ، كما أن كلامها لا يخلو من اضطراب؛ إذ يفترض أن تأمر يوسف بالدخول وليس الخروج فلم يكن مختبئًا مثلًا في دولاب أو صندوق.

وفي المقابل جعل المولعون بالإعجاز القرآني في التركيب إعجازًا قرآنيًا بحسبة للفظة (إخوان) وتكرار هذه اللفظة في القرآن وارتباطها بالعدد (٧) في أحوال دون أحوال ليوصلك في النهاية بقدرة قادر إلى أنه إعجاز.

* * *

(إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ) (الإسراء: ٢٧)

قوله **(إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ)** يسمى عند البلاغيين بالتشبيه، فالآية تُشبه هؤلاء المبذرين بالشياطين أو إخوان الشياطين يترسمون خُطاهم ويفعلون فعلهم ويسمى كذلك بلاغة، أقول وهذا في الحقيقة قد يكون مبالغة وليس بلاغة، فتشبيه المبذرين ووصفهم بهذا الوصف في رأيي فيه مبالغة، فالمبذر قد يكون مؤمنًا موحدًا مصليًا مؤديًا فروض ربه، إلا أنه بطبيعته مُبَذر مسرف، يستمتع بحياته ينفق من أمواله الحلال، فكيف يوضع في كفة واحدة مع الشيطان وأقاربه وكأن المبذر فاق في الجُرْم والمعصية المشرك والكافر والملحد، فهو يستحق اللعنة مثل الشياطين الملعونين المطرودين من رحمة الله وكأني بهؤلاء المبذرين يوسوسون للناس كما تفعل الشياطين، ويجاهرون بمعصية الله يتحدَّونه كما فعل إبليس من قبل لذا سألت هل هذا تشبيه وبلاغة أم مبالغة؟!

الخطاب في الآية موجه إلى الرسول فهو المخاطب بقوله **(وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا)** ثم جاء التعليل **(إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ)** فهو خطاب للرسول والصحابة والمؤمنين ولا يستقيم أن يكون المؤمنون إخوانًا للشياطين بسبب الإسراف والتبذير خصوصًا أنه ينفق أمواله في الحلال –مع بعض الإسراف– ويؤدي ما عليه من فرائض ويطيع ربه ويتجنب معاصيه، فلم تشر الآية إلى أن هذا المبذر يبذر أمواله في معصية الله مثلًا كما فسره بعضهم، فهي مبالغة بل تهويل فاق المبالغة.

(إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ) (القصص: ٧٦)

لا شك أن قوله **(مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ)** تسير في هذا الاتجاه "أي مبالغة" وتأكيدًا على هذه المبالغة جعلته الآية يمتلك عددًا من الكنوز وليس كنزًا واحدًا، كما أن هذه الكنوز لها عدد من المفاتح وليس مفتاحًا واحدًا وكذا الذي ينوء بحملها عصبة وليس فردًا واحدًا، وقالوا يحمل هذه الكنوز أربعون بغلًا واختلفوا في العصبة فبلغت سبعين رجلًا عند بعضهم إمعانًا في هذه المبالغة، كما أنها ليست أية عصبة ولكنها عصبة أولو قوة ومع ذلك تنوء بحمل المفاتح ناهيك عن الخزائن.

وأراد بعضهم أن يهون من هذه المبالغة فقالوا المقصود بالمفاتح: الخزائن ذاتها، والعجيب أن قارون كان من قوم موسى أي أحد أقاربه ومن بني جلدته ولم يكن من قوم فرعون الحاكم والملك والمهيمن على مقدرات الشعب، ومعلوم أن قوم موسى كانوا مستعبدين، فهل بلغوا من الثراء والغنى بعد القضاء على فرعون وملئه وخروج بني إسرائيل ما يجعل أحدهم يمتلك هذه الكنوز؟ ومعلوم أنهم استولوا على حلي المصريين وكثرت في أيديهم لدرجة أنهم اتخذوا منها عجلًا جسدًا له خوار.

قال الزمخشري: وقد بولغ في ذكر ذلك بلفظ الكنوز والمفاتح والنوء والعصبة وأولي القوة، وقال الأستاذ درويش: وهذه المبالغة في القرآن من أحسن المبالغات وأغربها عند الحذاق، وهي أن ينقص جميع ما يدل على الكثرة وتعدد ما يتعلق بما يملكه.

ثانيًا- ما يخص المعاني والجمادات:

(وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ) (البقرة: ٧٤)

أما الحجارة التي تهبط من خشية الله فهي في الغالب مبالغة، خصوصًا أنه سبق عرض الأمانة على السماوات والأرض والجبال **(فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا)** (الأحزاب: ٧٢)، والحجارة من الجبل وكذلك الجبل الذي يخشع ويتصدع من خشية الله هي كذلك مبالغة، وإلا كانت صخرة الدويقة التي سقطت على الناس قبل عقدين تقريبًا إنما سقطت عليهم نتيجة خشية الله، وكأن قتلى هذه الصخرة هم ضحايا خشيته سبحانه، وربما كانت الرافعة التي دهست المعتمرين بالكعبة قبل سنوات سقطت كذلك وهبطت من خشية الله في هذا المكان المبارك وسط دعوات المؤمنين.

قال مجاهد: ما تردّى حجر من رأس جبل، ولا تفجر نهر من حجر، ولا خرج منه ماء إلا من خشية الله؛ نزل بذلك القرآن الكريم، وقال بعض المتكلمين في قوله: **(وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ)**: البرد الهابط من السحاب، وقيل: لفظة الهبوط مجاز؛ وذلك أن الحجارة لما كانت القلوب تعتبر بخلقها وتخشع بالنظر إليها، أضيف تواضع الناظر إليها، وحكى الطبري عن فرقة أن الخشية للحجارة مستعارة؛ كما استعيرت الإرادة للجدار في قوله «يريد أن ينقض»، وكما قال زيد الخيل:

لما أتى خبر الزبير تواضعت سور المدينة والجبال الخشع

وذكر ابن بحر أن الضمير في قوله تعالى: (وإن منها) راجع إلى القلوب لا إلى الحجارة أي من القلوب لما يخشع من خشية الله.

بل إن مسألة الجذع الذي حنَّ إلى الرسول وكذا الحجر الذي كان يسلم عليه بمكة كل ذلك على سبيل المبالغة وكانت معجزة الرسول القرآن لا غير، وقد طلبت قريش ولو معجزة واحدة وتعددت المطالب فكان رد الرسول كما أشار القرآن (**قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا**) (الإسراء: ٩٣) وجاء النفي الصريح بذات السورة (**وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآَيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ**) (٥٩)؛ إذ لو حنّ الجذع كما يقال على الحقيقة أو سلم عليه الحجر لكانت آية حسية تراها قريش وينتشر بها الخبر وهذا ما لم يقل به أحد فهو مجاز وكناية عن فرط حنوه وعطفه حتى على الجماد أي هي مبالغة لا غير.

* * *

(**وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ**) (آل عمران: ١٣٣)

المنطق يقول إن قوله (**وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ**) مجرد استعارة وبلاغة ومبالغة، فإذا كان هذا هو عرضها فما هو طولها؟! ولا يصلح ما أجاب به الرسول أحدهم عندما سأله ذات السؤال فأجاب: وأين الليل إذا ذهب النهار؟ فهذا الجواب لم يعد صالحًا في زماننا بعد أن عرفنا أين يذهب الليل إذا جاء النهار، والإشكال يزيد إذا كانت أكثر من جنة وكان له جنتان أو جنات.

وقالت آية أخرى: إن عرضها كعرض السماء والأرض (**الحديد: ٢١**) هذا يعني أن عرضها ليس عرض السماوات والأرض كما قالت آية

(آل عمران) بل كعرض سماء واحدة كما قالت آية (الحديد) فهو مجرد تشبيه وتصوير لعظمها ومبالغة لا غير وإلا صارت الآيتان متناقضتين.

وعبارات المفسرين تفيد أنه تمثيل فنقل القرطبي عن بعض العلماء أن الكلام جارٍ على مقطع العرب من الاستعارة، فلما كانت الجنة من الاتساع والانفساح في غاية قصوى حسنت العبارة عنها بعرض السماوات والأرض، كما تقول للرجل: هذا بحر، ولشخص كبير من الحيوان: هذا جبل، ولم تقصد الآية تحديد العرض، ولكن أراد بذلك أنها أوسع شيء رأيتموه، وقال ابن عاشور: وذكر السماوات والأرض على طريقة العرب في تمثيل شدة الاتساع، وليس المراد حقيقة عرض السماوات والأرض، وهو مضمون تفسير السعدي.

وأراد ابن عباس وغيره أن يزايدوا على النص المبالغ فيه أصلًا فقال: تقرن السماوات والأرض بعضها إلى بعض كما تبسط الثياب ويوصل بعضها ببعض فذلك عرض الجنة، ولا يعلم طولها إلا الله.

لاحظ أن الأرض لا قيمة لها إلى جانب السماوات المترامية الاتساع، فالأرض إلى جانب السماء أشبه بقولهم كحجم الفيل والنملة فأين النملة من الفيل، ويذكرني التركيب بقوله (**وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا**) (الإنسان: ١٢) فهل لذكر الحرير بعد ذكر الجنة كبير قيمة سوى أنها زادت لدواعٍ موسيقية؟ إذًا هي استعارة وتمثيل أي مبالغة وليست حقيقة.

* * *

السماوات والأرض والجبال:

وردت تراكيب قرآنية تفيد أن هذه المخلوقات تفعل فعل الآدميين تطيع وتسجد وتسبح وتخشع وتتصدع من خشية الله في مثل قوله: **(تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ)** (الإسراء: ٤٤)، **(تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا)** (مريم: ٩٠)، **(وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ)** (الأنبياء: ٧٩)، **(لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ)** (الحشر: ٢١).

قوله: **(تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا)** فيه قدر من المبالغة لتصوير جرمهم والمبالغة نوع من البلاغة وقد قيل ما هو أفظع من ذلك وأشنع ولم تحرك السماء ساكنًا ولم تهتز الأرض بمن عليها ولم تسقط الجبال، ولا شك أن الذين كفروا بالله والذين أنكروا وجوده والذين سبوه وتحدوه أتوا وجاءوا إدًّا أكبر، ويقال إن الروس أطلقوا النار على السماء قبل مائة سنة تقريبًا أرادوا بذلك قتل الإله، ولم يكن هناك أي رد فعل من نوع ما، وأصبحوا من أعتى الأمم قوة وجبروتًا قبل أن يتراجعوا خطوة للخلف.

أما قوله **(تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ...)** فيحتاج إلى مناقشة طويلة وعميقة، فقد أشار القرآن إلى أن الأمانة عرضت على السماء والأرض والجبال (فأبين أن يحملنها وأشفقن منها)، ولا شك أن تسبيح السماوات والأرض يعد من حمل الأمانة وكأن هذا

المعنى يتعارض مع ما ورد بسورة الأحزاب (٧٢ – ٧٣)، هذا أولاً، أما ثانيًا فهذه الجملة والحقيقة القرآنية كأن فيها مبالغة وليست بلاغة ومجازًا ويستبعد كذلك أن تكون حقيقة؛ إذ كيف تسبح هذه الجمادات؟ كيف تسبح السماء وقد لا يكون لها وجود مادي فهي مجرد انعكاس ضوء الشمس على الأرض أو البحار كما يقال؟! كيف لهذه الأرض التي نطؤها وندوس عليها بأحذيتنا وتمتلئ بالقاذورات والصرف الصحي وفضلات البهائم والأحياء؟ كيف تسبح وتهلل وتحمد؟! وقد يقول قائل وهل سبح الأحياء أصحاب الإدراك التام لتسبح الجمادات من أرصفة وحوائط وطرق وجبال؟!

وعليه نطرح السؤال الذي لم يجرؤ أحد على طرحه فيما أعلم: هل في القرآن مبالغة تتجاوز البلاغة والمجاز؟ فقوله مثلاً (**وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ**) (الرعد: ١٣) قد يدخل في هذا الإطار بعد أن أكد العلم أن الرعد عبارة عن تصادم شحنات كهربائية في الجو وقد أشرنا من قبل إلى هذه المبالغة التي وردت في قصة يوسف وهؤلاء النسوة اللاتي قطعن أيديهن بمجرد رؤية يوسف (يوسف: ٣١)، وكذلك الجنة التي عرضها السماوات والأرض وقد سأل أحدهم: أين طولها إذا كان الأمر كذلك؟

هذا الخبر بشكل مجرد يبدو مستغربًا؛ إذ كيف تسبح هذه الأشياء خصوصًا الجبال التي هي جماد؟ ولولا أن القرآن نص على ذلك في غير موضع مصداقًا لما ورد في التوراة لما قبلنا هذا الأمر وتعذر

تصديقه، قال الشعراوي: لكن إن تصورنا التسبيح من الطير؛ لأنه حي وله روح وله حركة وصوت مُعبر، فكيف يكون التسبيح من الجبال الصماء؟ أما المعتزلة فقالوا: لو حصل الكلام من الجبل لحصل إما بفعله أو بفعل الله تعالى فيه، والأول: محال لأن بنية الجبل لا تحتمل الحياة والعلم والقدرة، وما لا يكون حيًا عالمًا قادرًا يستحيل منه الفعل، والثاني: أيضًا محال لأن المتكلم عندهم من كان فاعلًا للكلام لا من كان محلًا للكلام، فلو كان فاعل ذلك الكلام هو الله تعالى لكان المتكلم هو الله تعالى لا الجبل.

إذًا هو رجع صدى الصوت الناشئ عن تسبيح داوود يتردد في الجبل فكأنه تسبيح منها على سبيل المبالغة.

ولا يبعد أن يكون قوله: (**لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ**) (الحشر: ٢١) نوعًا من المبالغة، فإذا كان الآدميون لا يخشعون ولا يهتز لهم جفن فكيف يحدث مثله أو أشد منه للصخور والجبال؟ كما أن كيفية هذا الإنزال للقرآن على جبل تبدو مسألة غير مفهومة فكيف ينزل القرآن على الجبل؟ هل وضع مصحف على جبل مثلًا يفيد ذات المعنى ويعد إنزالًا للقرآن على هذا الجبل؟

* * *

(**لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ**) (القدر: ٣)

هذه في الغالب مبالغة وإن ظن معظم المسلمين أنه خبر على الحقيقة، لاحظ أن الآية تقول (**خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ**) ولم تقل من عبادة ألف شهر أو تساوي ألف شهر، كما يظن الناس، فهي أشبه بقولهم (عقبال ١٠٠ سنة)، و(ألف مبروك) و(مليون مرحب وسلام).

وقد تكون ليلة القدر خيرًا من ألف شهر لم يعبد فيها الله عندما ساد الشرك والكفر وظهر الفساد في البر والبحر أي قبل إرسال الرسل، أو تكون هذه الخيرية خاصة بالليلة التي نزل فيها القرآن وليس في كل ليلة من شهر رمضان كما يظن المسلمون فليلة القدر ليلة واحدة، مضت بنزول القرآن فيها وليس بالضرورة أن تكون كذلك في كل رمضان وفي العشر الأواخر منه حيث ينتحر الناس في العبادة وينتهي رمضان ولا جديد تحت الشمس ولا تتغير أحوالهم كما هو مشاهد.

ذكروا في سبب نزول الآية أن النبي أشار أن رجلًا من بني إسرائيل لبس السلاح في سبيل الله ألف شهر فتعجب المسلمون من ذلك فأنزل الله تعالى (**إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ * لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ**) (القدر: ١ – ٣)، قال: خير من التي لبس فيها السلاح ذلك الرجل، ولو كان الإسرائيلي صاحب هذه القصة لبس السلاح ألف سنة لكانت ليلة القدر خير من ألف سنة وحينها تسمى بليلة الهنا اتساقًا مع ألف سنة.

كما أن ما ورد في شأن ليلة القدر من أحاديث لا يبعد أن يكون على سبيل المبالغة كذلك أو تكون مؤلفة عن الرسول من ذلك ما ورد في الصحيحين «**من قام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه**» فهذا الحديث مثلًا يتنافى مع المنطق والعدالة ويتجاوز المبالغة ويصبح غلوًا وإغراقًا وتهويلًا، فلا يستقيم أن يعصى الله عشرات السنين وتغفره ليلة واحدة، فلا يقبل المنطق هذا القول الذي نردده دون إعمال عقولنا، ربما لهذا السبب يتمادى الناس في المعاصي على أمل أن يُغفر لهم في هذه الليلة كما وعد الحديث.

لاحظ أنها خير من ألف شهر فيها ليلة القدر أي من عاش خمسين سنة يعبد الله في هذه الليالي خير له من عبادة خمسين ألف شهر أي ما يعادل أربعة آلاف سنة، فهل هذا معقول؟! وكأن هذه الليالي الخمسين تساوي هذا اليوم الذي مقداره (خمسين ألف سنة) كما ورد في سورة المعارج (٤) فهي إشارة إلى طول هذا اليوم وليس بالضرورة أن يكون العدد مقصودًا لذاته.

الـــخـــــــا تــمـــــــة

أردنـا أن نؤكـد مـن خـلال هـذا البحـث أن الـنص القرآنـي تضـمن كثيرًا من المبالغات، فقد ازدحم بعشرات صيغ المبالغة الخاصـة بصفات الله كـالغفور والـرحيم والعـلام، وتتسـحب المبالغـة كـذلك علـى بعـض التراكيـب التـي أوردناهـا، والمبالغـة درس مـن دروس البلاغـة وهـو أن يصرف المتكلم كلامـه عمـا يطـابق المـألوف ويوجهـه إلـى مـا لا يطابقـه، وتعد المبالغة من الأساليب العربية التي يقصد بها تفخيم المعنى وتهويله لتمكينه وتوكيده في نفس المتلقي، وهي أحد فنون علم البديع، ويمكن أن نقسم هذا الـدرس إلـى نـوعين: نـوع يخص الكائنـات الحيـة، ونـوع يخص المعاني والجمادات.